المكتبة الورقية [٤١]

# الإِينَاس فِي بَيَانِ مَعْنَى:

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧].

كتبه

أبو زيد العتيبي –عفا الله عنه–

# الإِينَاس فِي بَيَانِ مَعْنَى:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

كتبه أبو زيد العتيبي –عفا الله عنه–

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللّهَ –جل في علاه– قد شرع لعباده شرائع الإسلام، وأحكم مبانيه العظام، وجعل كل شعيرة منها تتضافر مع أخواتها في تشييد بنائه الشامخ، وعمارة صرحه الخالد.

فَالشَّرائعُ الإِسلامِيَّةُ من الواجبات والمستحبات روافد إيمانية، ومنابع يقينية تسقي شجرة محبة اللّه –تعالى– في قلوب الصالحين والصالحات.

ولُبُّ هذه الشجرة (توحيد الله، وإخلاص الدين له)، وهو حقيقة الأمر والغاية من الخلق، كما قال –تعالى–: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ومن رحمة اللّه —تعالى— بعباده أن جعل لهم من الأزمنة والأمكنة مواسم للطاعات، وأماكن للقربات، يظهرون فيها مكنون قلوبهم، ومحبوس صدورهم من التأله والتعبد.

فَمَحَبَّتُهُمْ لِلّٰهِ —تَعَالَى— تجري مع نبض قلوبهم، ودمع عيونهم شوقاً ووجداً، فيخرجون مكنون المودَّة، وينفِّسون عن زفرات الشوق والمحبَّة بالقيام بالواجب والسُّنَّة.

ومن تمام منَّة اللّه، وعظيم رحمته، وكمال لطفه أن جعل لعباده بيتاً لتوحيده، تُرَاقُ بِفِنَائِهِ الأشواقُ، وتسبل بفيض دموع محبَّتها الأحداق، تتعلق القلوب برحابه، وتأنس النفوس بجنابه.

سِرٌّ أُودِعَ فِي القلوبِ تسمو به إلى علام الغيوب.

(بَيْتٌ) لا يَكَلُّ الناظرُ إليه، ولا يمل الطائف به، ولا يستحسر العاكف عنده؛ لانجذاب قلوبهم إليه، وتعلُّق نفوسهم به؛ لأنه بيت العبادة والإنابة.

وَلَمَّا رَأَتْ أَبْصَارُهُمْ بَيْتَهُ الَّذِي *** قُلُوبُ الْوَرَى شَوْقاً إِلَيهِ تَضَرَّمُ

كَأَنَّهُم لَمْ يَنْصبوا قَطُّ قَبْلَهُ *** لأَنَّ شَقَاهُمُ قَدْ تَرحَّلَ عَنْهُمُ

فَلِلَّهِ كَمْ مِنْ عَبْرَةٍ مُهَراقَةٍ *** وَأُخْرَى عَلَى آثَارِهَا لا تَقَدَّمُ

إِذَا عَايَنَتْهُ العَيْنُ زَالَ ظَلامُهَا *** وَزَالَ عَنِ القَلْبِ الكَئِيبِ التَّأَلُّمُ

وَلا عَجَباً مِنْ ذا فَحِينَ أَضَافَهُ *** إِلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَنُ فَهُوَ الْمُعَظَّمُ

كَسَاهُ مِنَ الإِجْلالِ أَعْظَمَ حُلَّةً *** عَلَيْهَا طِرَازٌ بِالْمُلاحَةِ مُعْلَمُ

ومن لطيف حكمة الله –تعالى– أن أجرى سننه الكونيَّة في صلاح الدُّنيا، وفسادها على مقتضى تعظيم هذا البيت، وتبجيله، ورعاية حرمته تفخيماً لشأنه، وقياماً بحقه.

فأسعد النَّاس قلباً، وأشرحهم صدراً، وأقومهم بأمر دينه ودنياه من كان أكثر تعظيماً للبيت الحرام، كما قال –سبحانه–: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

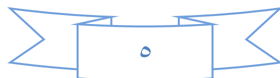
قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "أي: يُرْفَع عنهم بسبب تعظيمها السُّوءُ، كَمَا قالَ ابنُ عبَّاسٍ –رضي الله عنهما–: لَوْ لَمْ يَحُجَّ النَّاسُ هَذَا الْبَيْتَ لأَطْبَقَ اللهُ السَّمَاءَ عَلَى الأَرْضِ" (تفسير القرآن: ١/ ٤١٣).

وَقَالَ السّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "يَقُومُ بِالْقِيَامِ بِتَعْظِيمِهِ دِينُهُمْ وَدُنْيَاهُمْ" (تيسير الكريم الرحمن، ص: ٢٧١).

وَالسِّرُّ في ذلك أنه (بَيْتُ التَّوْحِيدِ) الَّذي تمَّ بناؤه، وعلت أركانه على أسس الإخلاص؛ فهو أوَّل مكان وضع لبثِّ الوجد والمحبَّة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

ولعظيم شأنه عند الله –تعالى–، وكمال فخره تولَّى الله –سبحانه– تعليم إبراهيم الخليل موضع بنائه المشرَّف، كما قال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

"أَيْ: أَرْشَدَهُ إِلَيهِ، وَسَلَّمَهُ لَهُ، وَأَذِنَ لَهُ فِي بِنَائِهِ" (تفسير ابن كثير: ٥/٤١٣ ).



وفي هذا كمال الفخر، وعظيم الشرف أن يكون اللّه –تعالى– هو الذي تولَّى تحديد مكانه، وتعليم إبراهيم موضع بنائه. وشيء هذا شأنه يكون مقصوده من أجلِّ المطالب، وغايته من أرفع المراتب.

وذلك المقصود يتحقق بأمرين اثنين:

الأَمْرِ الأَوَّلِ: نفي الشِّرك، والكفر بالأنداد، والبراءة من الطواغيت، كما قال –تعالى–: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

فتأمل قوله –تعالى–: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾. "هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير اللّه، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد اللّه وعبادته وحده لا شريك له، فذكر –تعالى– أنَّه بوَّأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه" (تفسير ابن كثير: ٥/٤١٣).

الأَمْرِ الثَّانِي: تحقيق التوحيد، كما قال –تعالى-: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾.

"أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين، بالصلاة والطواف" قَالَهُ السِّعْدِيُّ في تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٧).

وحقيقة التوحيد: إفراد الله بالعبادة –محبة وخضوعاً– حتى لا يكون في القلب تعظيم إلا لخالقها –ذي الجلال والإكرام–.

ومن أمهات العبادات الجليلة (الدعاء، والاعتكاف، والطواف، والركوع، والسجود).

فالمؤمن يطمئن قلبه بذكر ربه ويأنس بدعائه، ويسكن بالاعتكاف عند بيته، وتقر عينه بطوافه وقيامه وركوعه وسجوده لربه.

فَبَيْتٌ هذا مقصود قيامه، وعمارة أركانه لهو في غاية الجلال، وعظيم الحرمة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: "ومن هذا قوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ﴾ [الحج: ٢٥]، وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء ولكن ضُمِّن معنى (يهم) فيه بكذا، وهو أبلغ من الإرادة، فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة". (بدائع الفوائد: ٢/٢٥٩).

ثم شرع الله -تعالى- لعباده أن يقصدوه، ويتكلفوا الوصول إليه -حسب الطاقة والمكنة- وجعل في قلوبهم مقتضى قصده قائماً -محبة وشوقاً-؛ لأنه ادعى لتعظيمه وتبجيله، فالقلوب ترحل إليه قبل أبدانها، والنفوس تكاد من الشوق تخرج من أجسادها.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

دَعــاهُمْ فَلَبَّوهُ رِضـــاً وَمَحبَّةً *** فَلمَّا دَعوهُ كَانَ أَقْــربَ مِنْهمُ

تَرَاهُمْ عَلَى الأَنْضَاءِ شُعْثاً رُؤُوسُهُم *** وَغُبّراً وَهُمْ فِيهَا أَسَرُّ وَأَنْعَمُ

وَقَد فَارَقُوا الأَوْطَانَ وَالأَهْلَ رَغْبَةً *** وَلَم تُثْنِهِم لَذَّاتُهُمْ وَالتَّنَــعُّمُ

يَسيرُونَ فِي أَقْطَارِهَا وَفِجَاجِهَا *** رِجَالاً وَرُكْبَاناً وَللّهِ أَسْلَمُــوا

نِدَاؤُهُــمْ فِي هَذَا المشهد العظيم، وهم قاصدين الكعبة المشرفة:

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ.

تعلو بها أصواتهم، وتعج بها حناجرهم.

أَمَّا وَالَّذِي حَجَّ الُمحِبُّونَ بَيْتَهُ *** وَلَبَّوْا لَهُ عِنْدَ الْمُـهَلِّ وَأَحْــرَمُوا

وَقَدْ كَشَفُوا تِلْكَ الرُّؤُوسَ تَوَاضُعاً *** لِعِزَّةِ مَنْ تَعْنُوا الوُجُوهُ وَتُسَلِّمُ

يُهِلُّوَن بِالْبَيْدَاءِ لَبَّيكَ رَبُّنَا *** لَكَ الْحَمْدُ وَالْمُلْكُ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُ

فَالْمَقْصُودُ مِنَ هَذَا (الْبَيْتِ الْمُعَظَّمِ) بشعائره، ومشاعره، وأحكامه، وسننه، وآدابه هو: (إِقَامَةُ التَّوْحِيدِ وَإِفْرَادُ اللّهِ بِالْعِبَادَةِ) وهذا هو المقصود من إيجاد الخليقة، فإذا عبدوا اللّه وحده، وامتثلوا أمره، وحققوا تقواه أصلح اللّه لهم أمر معاشهم ومعادهم.

وعلامة قيامهم بما خلقوا له هو تعظيمهم البيت الحرام الذي قام على هذا الأصل المتين، والمطلب الرفيع.

فإن فرطوا في شأن هذا البيت ولم يعظموه دل على تفريطهم في حق اللّه وعدم تعظيمه والاستهانة بحقه وتعلق قلوبهم بغيره من القبور والمشاهد ونحوهما.

وعندها يفسد عليهم أمر دينهم ودنياهم، وتنتابهم المخاوف، ويتيهون في الضلال ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فما أقبح الشرك، وما أشد ظلمته، وما أفجر جرمه؛ إذ كيف يعقل أن يتوجه العبد المخلوق بالدعاء والتضرع لعبد فقير ضعيف مثله. كيف يُسوَّى بين مخلوق من تراب برب الأرباب؟!

ومما يزيد قبحه أن تشيد للمعبودات دون اللّه (المشاهد)، (والمزارات) وتقام عليها (القباب)، (والمنارات).

فصار الجهلة من العوام بتزيين (أذناب الشيطان)، (وسدنة الأوثان) يصرفون العبادات الخالصة التي هي محض حقِّ اللّه، ولُبُّ التَّألُّه، وروح العبوديَّة من الدُّعاء والطَّواف والاعتكاف ... إلى غير اللّه –تعالى– من الأموات.

يَا مَالِكًا مَا أَعْدَلَكَ ※※※ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ

لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ ※※※ وَالْمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكَ

عَبْدُكَ قَدْ أَهَلَّ لَكَ ※※※ أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكَ

لَوْلاكَ يَارَبُّ هَلَكَ ※※※ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ